

المسلمون في كتابات الرحالة الإيطاليين (القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديان)

د. عمر عبد المنعم إمام إبراهيم

كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر

merosh2000@gmail.com

"ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأفطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمته"⁽¹⁾.

إن الاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في دياناتهم ونظم حكمهم، غالباً ما تضع أمام الفرد مجالاً طيباً للمقارنة، كما تساعده على تقييم نظم وتقاليد بلده وموطنه، ولكون الفرد يتشكل عامة في إطار معين من التقاليد والعادات التي ينشأ عليها ويألفها، فإن حكمه على الشيء المخالف لها يأتي عادةً محملاً بقدر كبير من التعسف والتحيز، ولقد دأب أحياناً هذا الفرد أن يسخر مما يصل آذانه، أو يراه بعينه من سلوكيات أفراد الشعوب الأخرى، مع أنه لا يدرك أنه هو نفسه قد وقع أسيراً لتقاليد وعادات لا تقل غرابة عن تلك الأمور التي تسود حياة الآخرين⁽²⁾.

ولقد اهتم الأوروبيون بالغ الاهتمام بزيارة الأراضي المقدسة منذ أقدم العصور، ولعل اهتمامهم هذا نابع من الأهمية الدينية لتلك البقاع المقدسة، كما إنهم أيضاً اهتموا بتلك البلاد بغرض التجارة؛ فالمدن الإيطالية بذلت جهوداً كبيرة من أجل الحصول على امتيازات، وموانئ في الأراضي المقدسة في عصر الحروب الصليبية، كما زار بعض الأوروبيين بلدان المشرق الإسلامي من أجل الكتابة عنها، ووصف المدن والقرى والمظاهر الطبيعية بها، وقد تخللت كتابات هؤلاء الرحالة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لشعوب تلك البلدان

¹ - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م، ص 11.

² - حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، 1989م، ص 17.

والتي تضمنت عادات وتقاليد، وشرائع وممارسات دينية، وكان للرحالة الإيطاليين نصيب وافر من هذه الرحلات؛ فقد كتبوا الكثير عن شعوب تلك المناطق، إلا أنه يجب مراعاة الحيطة والحذر من بعض تلك الكتابات؛ بسبب اختلاف الثقافات والبيئات، كما أن بعض كتابات هؤلاء الرحالة ربما كان الغرض منها التشكيك في عقائد وممارسات المسلمين، ونحن بصدد سبر أغوار كتاباتهم بمقارنتها مع بعض الكتابات الأخرى سواء كانت لرحالة أوروبيين آخرين، أو لمؤرخين مسلمين.

الشعائر والعبادات الدينية

مما لا شك فيه أن شعائر المسلمين وعباداتهم قد جذبت انتباه الرحالة الأوروبيين؛ نظراً للاختلافات الدينية والثقافية والاجتماعية بين المجتمع العربي الإسلامي، والمجتمع الأوروبي المسيحي، فكانت أول القضايا الدينية التي تناولها الرحالة الإيطاليون في كتاباتهم هي: قضية الزواج والطلاق في المجتمع الإسلامي، فقد تعجب الرحالة فرانتشيسكو سوريانو Francesco Suriano من أن الرجل هو من يعطي المهر لزوجته، عكس ما يحدث في المجتمع الإيطالي آنذاك؛ لأن الزوجة هي من تتكفل بجميع الأعباء المنزلية في بيت الزوج، "فلو كانت خادمة بالتأكيد كانت ستحصل على راتب كما نعمل مع الجوّاري اللاتي يحصلن على تعويض مادي مقابل خدماتهن لنا"⁽³⁾، وقد اتفق الرحالة اليهودي ميشولم بن مناحم Meshullam ben Menahem مع سوريانو في أن الزوج هو من يعطي مهراً لزوجته، كما أنه ملزم بإطعام زوجته، لكنه زاد على ذلك في: "أن الزوجة هي من تنفق على ملابسها من مالها الخاص، وتنفق أيضاً على إطعام أطفالها"⁽⁴⁾، غير أن سوريانو يختلف

³- Suriano, F., *Treatise on the Holy Land*, trans. T. Bellorini et al, Jerusalem, 1949, p 204.

وُلد فرانتشيسكو سوريانو بمدينة البندقية عام 1450م في أسرة تجارية نبيلة، التحق بالمدرسة في طفولته، وعندما بلغ الثانية عشر من عمره بدأ رحلته التجارية على متن سفينة عمه التي كانت تجوب سواحل البحر المتوسط، وفي سن الخامسة والعشرين انضم تحت لواء طبقة الفرنسيسكان؛ ففي عام 1475م استلم الرداء الرهباني في كنيسة القديس فرانتشيسكو في البندقية، وكان له العديد من الأصدقاء الذين ساهموا في تحويله إلى خدمة وطاعة الرب، ولذلك قرر الذهاب إلى أومبريا Umbria مهد الرهبنة الفرنسيسكانية وهناك قام بدراسة اللاهوت وأصبح كاهناً. للمزيد راجع:

Suriano, *Treatise on the Holy Land*, 1-2.

⁴- Rabbi Meshullam ben Menahem of Volterra, *Jewish Travellers*, ed. E. Adler, London, 1930, 158.

مع ميشولم في: "أن الزوج يعطي زوجته مالاً للنفقات كل يوم، كما يعطيها مالاً في كل عام من أجل الملبس، ومالاً كثيراً عند كل مولود يُولد من أجل رعايته"⁽⁵⁾، وذكر ميشولم شيئاً غريباً: "هم يتزوجون ثلاثة وعشرين زوجة، وهناك العديد من المسلمين لديهم عشرين ولداً وبناتاً قد وُلدوا في عام واحد"⁽⁶⁾، وفي تعدد الزوجات، صرح فريسكوبالدي Frescobaldi أن "المسلمين لا يكتفون بزوجة واحدة، بل عدة زوجات"، غير أنه لم يذكر صراحة عدد الزوجات الأخرى مثلما فعل ميشولم، إلا أنه ذكر: "كان للسلطان مائة زوجة ما بين البيضاء والسمراء، مثلما كان لمحمد"⁽⁷⁾، ربما عدّد فريسكوبالدي الجوازي اللاتي

⁵- Suriano, *Treatise on the Holy Land*, 205.

⁶- Rabbi Meshullam of Volterra, 158.

لقد ذاعت ظاهرة تعدد الزوجات بشكل كبير خاصة لدى طبقة سلاطين المماليك، وحسبنا أن نذكر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (741-684هـ/1285-1341م)، الذي كان متزوجاً من أربع زوجات، وشغف بحب الجوازي، فكتب إلى أعمال مصر ببيع الجوازي المولدات وحملهن إليه، وأخذهن حتى من المغنيات، فزاد عددهن عنده على ألف ومائتي وصيفة، كما ذكر سيجولي أن السلطان الظاهر سيف الدين برفوق (740-801هـ/1340-1399م) كان متزوجاً من سبع نساء، وامتلك عدداً ضخماً من الجوازي والمحظيات. وذكر ابن أبيك الصفدي أن الأمير سيف الدين كراي المنصوري نائب الشام كان إذا سافر يصحب معه جواريه، وكان له أربع زوجات وثلاثون حظية من جواريه. راجع: المقرئ، (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الغبيدي)، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، ج3، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص 318-319؛ الصفدي، (صلاح الدين خليل بن أبيك)، *الوافي بالوفيات*، ج 24، تحقيق/ أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م، ص 251؛ أحمد عبد الرزاق، *المرأة في مصر المملوكية*، القاهرة، 1999م، ص 88-89؛

Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi, Gucci and Sigoli, trans. T. Bellorini et al, Jerusalem, 1948, 172.

⁷- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 49-50.

ليوناردو دي نيكولو فريسكوبالدي: سليل أسرة فلورنسية نبيلة كانت تنتسب إلى حزب الجيلف Guelph، والتي امتازت بأعمال التجارة والبنوك، وقد شغل حاكماً لمدينة كاستيلو Castello بعدما رجع من الأراضي المقدسة، وتم اسناد له إرسال السفارات إلى الباباوات خلال الأعوام (1389-1398م). بدأ فريسكوبالدي رحلته إلى الأراضي المقدسة في العاشر من أغسطس من عام 1384م، والتي استغرقت ما يقرب من عام، وكان في صحبته كل من جورجو جوتشي وسيمون سيجولي. وترك رحلة ثرية بالتفاصيل الشخصية. راجع: Chareyron, N., *Pilgrims to Jerusalem in the middle Ages*, New York, 2005, 224-225.

كن في قصر السلطان، كما نوه إلى القضية التي أثارها كُتّاب العصور الوسطى بشأن تعدد زوجات النبي محمد ﷺ، وما ماثلها من أقاويل.

انتقل الحديث إلى قضية الطلاق، فكما ورد عند الرحالة سيمون سيجولي Simone Sigoli أنه أطلق على الزواج والطلاق اسم "العادات البهيمية"، وذكر: "عندما لا يحب الرجل زوجته، يذهب إلى رجل الدين (القاضي) ويخبره بذلك، ثم يُرسل القاضي في طلب الزوجة، ومن ثم ينفصلان، وإذا أراد الرجل أن يسترجع زوجته إن كان قد طلقها لثلاث مرات؛ فإن القاضي يرسل في طلب ثلاثة رجال فاقد البصر يقومون بمداعبة الزوجة يوماً كاملاً، وبهذه الطريقة يستطيع كل من الزوجين العودة لبعضهما، وفي حالة أن طلق الرجل زوجته لأكثر من ثلاث، فإنهما لا يستطيعان العودة لبعضهما مرة أخرى"⁽⁸⁾، تكرر الحديث عند فريسكوبالدي فذكر: "عندما تريد الزوجة الانفصال عن زوجها، فإن القاضي يستدعيها ويعطيها المهر المتفق عليه، ثم ينفصلا، وإذا أراد الطرفان العودة لبعضهما فيعطيها المهر مرة أخرى، ولكن بعد ثلاث مرات يجب عليها أولاً أن تضاجع رجلاً أعمى"⁽⁹⁾.

عن قضية الزواج والطلاق ذكر الرحالة الألماني أرنولد فون هارف Arnold von Harff: "من الممكن أن يتزوج الرجل ستة أو عشرة أو عشرين زوجة إن استطاع أن يتكفل بإطعامهن، وطبقاً لشريعتهم فعلى الرجل أن يعطي لزوجته ثلاثة عملات يومياً تقدر بقيمة ستة وعشرين دوقات Ducat (عملة معدنية من الذهب أو الفضة) من أجل النفقات، وأن يوفر لزوجته جارية تخدمها، أما إذا لم يوفر الزوج لزوجته تلك الأشياء، وأراد أن يتخذ عدة زوجات لا يستطيع إطعامهن، فمن حق الزوجة أن تشتكي إلى القاضي، وفي هذه الحالة يقوم القاضي بعقاب الزوج بالضرب أولاً، بالإضافة إلى أن الزوجة تنفصل عنه، وتأخذ كل متاعها والأشياء التي أحضرتها معها، ولهذا فإن الزوجة تتمتع بكثير من الحرية في الأراضي الوثنية"⁽⁸⁾ راجع:

The Pilgrimage of Arnold von Harff, trans. M. Letts, Nendeln, Lichtenstein, 1967, 112.

⁸- Sigoli, *Visit to the Holy Places*, 164.

سيمون سيجولي دي جنتيلي: سليل أسرة نبيلة من فلورنسا كانت تابعة لحزب الجلف، لا توجد سجلات أو معلومات توضح أنه عمل في الوظائف العامة بالمدينة، سافر بصحبة جوتشي وفريسكوبالدي، ومثليهما، فقد ترك عملاً لرحلته إلى الأراضي المقدسة. راجع:

Chareyron, *Pilgrims to Jerusalem*, 228.

⁹- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 49.

من الواضح أن كلا من سيجولي وفريسكوبالدي قد أشارا إلى قضية المُحلل كعلاج لمشكلة الطلقة الثالثة؛ حتى يتسنى للزوج أن يسترجع زوجته، وربما كان هذا الأمر شائعاً في المجتمع المملوكي حينئذٍ بالقاهرة، ولكن الغرابة في الموضوع - بالرغم من أن ظاهرة المُحلل مُحرمة من خلال أحاديث رسول الله - أن القاضي، الذي يمثل رأس السلطة الدينية وقتئذٍ هو من يسعى لحل مشكلة الطلقة الثالثة عن طريق المُحلل، وقد حاول الباحث أن يجد تفسيراً حول تصدر القاضي لحل هذه الظاهرة، وذلك عن طريق البحث في كتب الفتاوى، وكتب فقهاء ذلك العصر، إلا أنه لم يجد لها تأويلاً سوى استنتاج قابل للمناقشة، وهو أن مثل هذه النوعية من القضاة ربما لجأت إلى هذا الأمر سراً، أو استناداً إلى رأي فقهي ضعيف، أو تحايل على الشرع؛ كي تدرأ المفسدة الناتجة عن فراق الزوجين خاصةً وإن كان لهما أولاد، أما من ناحية كون المُحلل أعمى كما ورد عند فريسكوبالدي؛ فثمة استنتاج يُفضي إلى رغبة الزوج الأول، وربما الزوجة أيضاً، في ألا يتعرف عليها هذا المُحلل بعدما يُطلقها وتعود لزوجها السابق، وبخصوص ما ذكره سيجولي في أن عدد

في بيان شأن الطلاق والمُحلل؛ ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (728-661هـ/1262-1327م) أنه إذا طلق الرجل زوجته الطلقة الثالثة حُرمت عليه حتى تتكح زوجاً غيره، كما حرم الله ذلك ورسوله، وحينئذٍ فلا تُباح له إلا بعد أن يتزوجها غيره النكاح المعروف الذي يفعله الناس إذا كان الرجل راغباً في نكاح المرأة ثم يفارقها، فأما إن تزوجها بقصد أن يحلها لغيره؛ فإنه محرم عند أكثر العلماء، وذكر في موضع آخر على عهد رسول الله وخلفائه الراشدين، لم تكن امرأة تُرد إلى زوجها بنكاح تحليل، وإنما كان يُفعل سراً، ولهذا قال النبي: **«لعن الله آكل الربا، وموكله؛ وشاهديه، وكاتبه، ولعن المحلل، والمحلل له»** قال الترمذي: حديث حسن. ولما كثر اعتقاد الناس لوقوع الطلاق مع ما يقع من الضرر والفساد في الدين والدنيا بمفارقة الرجل امرأته، فصار الملزمون بالطلاق في هذه المواضع المتنازع فيها حزينين، الأول اتبع ما جاء عن النبي ﷺ والصحابة في تحريم التحليل، والحزب الثاني رأى أن يزِيل ذلك الحرج بأنواع من الحيل التي بها تعود المرأة إلى زوجها، ورأت طائفة من العلماء أن فاعله يُثاب لما رأى في ذلك من إزالة تلك المفساد بإعادة المرأة إلى زوجها، وكان هذا حيلة في جميع الصور لرفع وقوع الطلاق، ثم أحدث في الإيمان حيل أخرى؛ فأحدث الاحتيايل في لفظ اليمين، ثم أحدث الاحتيايل بخلع اليمين، ثم أحدث الاحتيايل بدور الطلاق، ثم أحدث الاحتيايل بطلب إفساد النكاح، وقد أنكر جمهور السلف والعلماء وأئمتهم هذه الحيل وأمثالها، ورأوا أن في ذلك إبطال حكمة الشريعة. لمزيد من التفاصيل راجع: ابن تيمية، (أحمد بن عبد الحلیم)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ج 33، جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة، 2004م، ص 33، 37-39.

المُحللين هو ثلاثة رجال؛ فربما يقوم اثنان منهم مقام الشهود على عقد الزوج، والثالث هو الزوج المُحلل.

وفيما يتعلق بأمر الطلاق عند سوريانو؛ فقد أشار إلى عاقبة إخلال الزوج بالمواثيق المبرمة في عقد الزواج، وذكر: "إذا أخل الزوج بالمواثيق المُوقَّع عليها أسفل وثيقة الزواج، فإن الزوجة تكون حرة أن تطلق زوجها، هذا الانفصال يحدث في أمرين؛ عندما يعتدي الزوج على زوجته بالضرب، أو أن الزوجة تشتكي من أن زوجها يهملها ولا يهتم بالعيش معها، وفي كلتا الحالتين، يتم استدعاء الزوج ويُجلد في حضور الزوجة حتى ينزف دماً ثم يُوضع في السجن، وإذا قطع على نفسه وعداً بأن يُصلح أخطائه وإذا كانت الزوجة راضية بهذا الوعد فإن الزواج يسير كسابق عهده مرة أخرى، لكن إذا رفضت الزوجة هذا التصالح أو الوعد، فإن الزوج يأخذ ورقة طلاق **Libellum repudii**"⁽¹⁰⁾. ربما قصد سوريانو الحديث عن الخلع نتيجة لكرهية الزوجة لزوجها لمعاملته السيئة لها، والاعتداء عليها بالضرب، أو وقوع الضرر النفسي والمعنوي عليها نتيجة إهمال الزوج لها، لكن الغريب في حديثه معاقبة الزوج بالضرب أمام زوجته حتى ينزف دماً والزج به في السجن، ربما وقع الزوج في جريمة الزنى.

نالت الصلاة جزءاً من كتابات الإيطاليين ولا سيما صلاة الجمعة؛ فذكر سيجولي أن "كهنة (شيوخ) مساجدهم يصعدون أعلى البرج (المئذنة) في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، وينادون بأنه على كل فرد الاستعداد للصلاة، ثم يصعدون مرة أخرى وينادون بصوت عال أنه يجب على كل فرد الذهاب للاغتسال، ويصعدون مرة ثالثة ويصيحون على الجميع أن يذهب للصلاة، وعند وصولهم باب المسجد الكبير، فإنهم ينزعون أحذيتهم ويتركونها بالخارج، وفي المسجد يقوموا بتقبيل الأرض بتضرع عدة مرات، ثم يأتي قاضيهم ويصعد على المنبر ثم يُحدثهم عن حياة محمد والصحابة، ويسرد العديد من الأشياء الشهوانية، والأفعال الشريرة التي فعلها محمد، وفي أثناء وعظه يستل خنجره من جانبه ويقول: كل من يرغب في إنكار ما أقوله، فليقطع إلى نصفين، وفي الحال يصيح الجميع بصوت عال قائلين: فليكن ما قُلت، وبهذه الطريقة يحيون حياة البهائم، ولا يُسمح للمسيحي الذي يعيش في بلاد المسلمين أن يجرؤ الخروج من منزله أثناء

¹⁰- Suriano, *Treatise on the Holy Land*, 205-206.

تأدية الصلاة حتى يغادروا المسجد"¹¹)، وقد زاد على هذا الرحالة الإيطالي أنسلم أدورنو Anselme Adorno بقوله: "أن القائد الديني (الخطيب) يمسك في إحدى يديه نصلً حاد، وفي اليد الأخرى الشريعة (القرآن) ويصرخ ويقول هذه هي شريعتنا، يجب أن تؤمنوا بها، وإذ لم تؤمنوا فإن هذا النصل سيشرط رؤوسكم إلى نصفين"¹²)، وفي هذا الشأن فقد أدلى فريسكوبالدي بدلوه، فذكر: "وعندما يقيم المسلمون صلاتهم، فإن الفرنجة المسيحيين يُحبسوا في مبنى يُسمى "Cane" وحارس هذا المبنى يغلق عليهم هذا

¹¹- Sigoli, *Visit to the Holy Places*, 170-171.

أشار كل من الرحالة الألماني فيلكس فابري Felix Fabri ونظيره برنارد من برايدنباخ Bernard von Breydenbach إلى عدم السماح للحجاج المسيحيين بالخروج من مقر إقامتهم وقت صلاة الجمعة؛ فذكر فيلكس: "وكان يوم العاشر من أكتوبر يوم جمعة، وفيه لا يحب المسلمون رؤية المسيحيين في الشوارع، ولذلك قضينا اليوم في المنزل"، وقد فسّر برنارد عدم خروجهم بقوله: "في يوم الجمعة لم يستطيعوا الخروج من المنزل بسبب الاحتفالات التي كان المسلمون يقيمونها في ذلك اليوم". للمزيد راجع:

Fabri, F., *Voyage en Egypte de Felix Fabri 1483*, trad. et annot. J. Masson, Le Caire, 1975, p.911; Bernard de Breydenbach, *Saintes Pérégrinations de Bernard de Breydenbach 1483, Extrait Relative à l'Egypte Suivant l'edition de 1490*, trad. et annot. F. Larrivaz, Le Caire, 1904, 47;

إبراهيم سعيد فهمي محمود، حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى (1291-1517م/690-923هـ)، ج2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص 132.

¹²- Adorno, A., *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, trad. et annot. J. Heers, Paris, 1978, p.75; Chareyron, *Pilgrims to Jerusalem*, 120.

ذكر ابن الحاج العبدري (737-656هـ/1258-1336م) إن الإمام عند صعوده المنبر في صلاة الجمعة ينبغي له أن يأخذ السيف أو العصا أو غيرها إذا أراد أحد اغتياله؛ لأن هذا المعنى مما يختص بالأمرأ الذين يخافون على أنفسهم الغيلة، وهذا مأمون في هذا الزمان إذ أن الإمام ليس له تعلق بالإمارة حتى يغتاله أحد. راجع: ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري المالكي الفارسي)، المدخل إلى الشرع الشريف، ج2، دار التراث، القاهرة، د.ت، ص 267.

ربما رأى هؤلاء الرحالة أحد الأمرأ يخطب وفي يديه السيف أو العصا، وأورد حديثاً عن الجهاد مثلاً أثناء الخطبة، وقد أخذته الحماسة، وأشار بسيفه كتعبير حركي للموقف.

ينتمي أنسلم أدورنو إلى عائلة جنوبية، ارتحل هو وابنه جوفاني في عام 1470م إلى الشرق حيث كانت لهم اهتمامات تجارية، فارتحلوا إلى تونس، ومصر، ثم وصلوا إلى القدس، وقد أهدى عمله التجوالي هذا إلى جيمس الثالث James III ملك إسكتلندا، والذي التقى به أنسلم في إحدى المهام الدبلوماسية في إسكتلندا. وقد احتوى هذا العمل على العديد من وصف الأماكن والسكان، والعادات. راجع:

Chareyron, *Pilgrims to Jerusalem*, 221.

المكان، وهذا الاسم يأتي من أننا كلاب Cani والعناصر الأخرى من المسيحيين لا يُحبسوا، ولكنهم يمكثون في منازلهم حتى يخرج هؤلاء المسلمين من مساجدهم⁽¹³⁾.

تفسيراً لما قاله فريسكوبالدي على أنهم كلاب؛ فقد أساء فهم اللغة حيث أنه فسّر كلمة "خان"⁽¹⁴⁾ Khan على أنها الكلمة الإيطالية "Cane" التي تعني كلب، هذا وإن دل فإنما يدل على عدم دراية فريسكوبالدي بالمصطلح المملوكي آنذاك، والثقافة المجتمعية، أو أنه لم يحاول التعرف على ماهية المكان، أو ربما فسّر ذلك مُتعمداً حتى يُظهر المجتمع الإسلامي في صورة مجتمع عنصري شديد التمايز ضد من هو غير مسلم.

ومما يؤخذ على فريسكوبالدي أيضاً أنه اعتبر يوم الإثنين هو يوم الجمعة، بقوله: "يقيم السراقة عيداً عظيماً يوم الإثنين، ويقولوا إنه يومهم المقدس، ففي وقت مبكر من يوم الإثنين يؤذنون من أعلى مساجدهم بأنه يجب على الجميع الذهاب للاغتسال، وفي ساعة الظهيرة يذهبون إلى مساجدهم ليؤدوا صلاتهم التي تستغرق ساعتين"⁽¹⁵⁾.

اتخذت المساجد وطريقة الأذان وصفاً تفصيلياً في كتابات هؤلاء الرحالة؛ فقد اتفقوا جميعاً على إطلاق مسمى "كنائس" على المساجد، ومسمى "أبراج" على المآذن؛ وذلك

¹³- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 42.

عن الصلاة يذكر أرنولد فون هارف: "المور Moors الذين يُطلق عليهم أيضاً الوثنيين أو السراقة لديهم شعور بالخوف من الله سواء كانوا صغاراً أو كباراً؛ فهم ينبطحون على الأرض خمس مرات يومياً باتجاه الشرق، يُقبلون الأرض بخشوع ويصيحون الله كريم ollachrim والتي تعني يا رب ارحمني، ولكنهم يضيفون إلى ذلك جملة صلي على سيدنا محمد olla alie sydine Machemet، والتي بدت لي على أنها خطأ فادح حيث أنها تعني أن الرب ذهب وحيا النبي محمد. ويذهب الجميع في يوم الجمعة إلى مساجدهم أو كنائسهم للصلاة، وفي مدخل الكنائس يوجد بصفة عامة نافورات المياه هم يجلسون ويفسلون أعضاء الجسد التي قد ارتكبوا بها الأخطاء في النهار أو الليل، وعندما يفرغون من ذلك، يجلسون على السجاد أو الحصير ويصلون بخشوع مع تقبيل الأرض، ثم يجلس الكاهن أعلى منهم ناحية الشرق، ويلقي خطبة بطريقة وثنية" راجع:

The Pilgrimage of Arnold von Harff, 116-117.

¹⁴- خان: تُعني النُّزل، الفندق، المقر المؤقت للتجار الأجانب وتجاراتهم، وقد شاعت هذه الأماكن كثيراً في العهدين المملوكي والعثماني بمصر والشام. راجع: حسن حلاق وآخرون، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م، ص 80.

¹⁵-Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 41.

انطلاقاً من التأثير الثقافي والاعتقاد الديني المسيحي في نفوسهم، ولتقريب المعنى للقارئ الأوروبي، فذكر فريسكوبالدي "يوجد العديد من المساجد التي هي كنائس السراقنة، ولا يوجد أجراس على أبراجها، ولم نعثر على أي شيء يدل على الوثنية"⁽¹⁶⁾، بل وتعدى الأمر حصر عدد المساجد بمدينة القاهرة، طبقاً لرواية نيكولو بوجيبونسي Niccolo Poggibonsi حيث ذكر: "كنائسهم ثلاثة آلاف وأربعمائة، وكل واحد من تلك الكنائس به برج عال ولكن بدون أجراس"⁽¹⁷⁾، وشمل الحديث وصفاً لبعض المساجد؛ فذكر أيضاً فريسكوبالدي "لا يميز المساجد أي نحت أو رسوم، واللون الأبيض بداخلها يكسو الحوائط، ويوجد فناء كبير في الوسط (صحن المسجد)"⁽¹⁸⁾، وزاد على ذلك ميشولم بن مناخم أن "كل مسجد به نافورة لكي يتمكن المسلمون من الاغتسال فيها خمس مرات في اليوم"⁽¹⁹⁾، علاوة على هذا فإن المسجد كان يمثل نقطة حماية لرجال الدين المسيحي في بعض المناطق الصحراوية خاصة في سيناء، وجاء هذا القول على لسان جوتشي Gucci "وبالقرب من كنيسة القديسة كاترين St. Catherine يوجد مسجد للخطابة، يأتيه المسلمون للصلاة، وقال الرهبان والكهنة أنهم راضون عن وجوده؛ لأنه بمثابة حماية وحصن لكنيستهم، والمسلمون هنا يحترمون الرهبان ويتجنبوا قول أو عمل غير شريف"⁽²⁰⁾، ربما دافع المسلمون عن دير القديسة كاترين ورهبانها من غارات الأعراب

¹⁶- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 41.

¹⁷- Poggibonsi, N., *A Voyage beyond the Seas (1346-1350)*, trans. T. Bellorini et al, Jerusalem, 1945, 89.

نيكولو دا بوجيبونسي: أحد رهبان طبقة الفرنسيسكان، من أصل توسكاني، قضى أكثر من أربع أعوام في الشرق حيث بدأ رحلته في عام 1345م وذلك من أجل "أن يرى كل شيء"، وقد خُلف ورائه عملاً ملئاً بتفاصيل حياته اليومية، والشعوب في الشرق. راجع:

Chareyron, *Pilgrims to Jerusalem*, 227.

¹⁸- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 41.

¹⁹- Rabbi Meshullam of Volterra, 174.

²⁰- Gucci, *Visit to the Holy Places*, 114.

جورجو جوتشي: من أسرة بسيطة في فلورنسا، اشتغل والده في الوظائف المدنية بالمدينة، وقد أصبح جوتشي رئيس أحد الأديرة في عام 1379م، وعمل سفيراً لروما في عام 1383م، وقد أُغتيل على يد أخيه توماس في عام 1393م، شارك جوتشي في رحلة إلى الأراضي المقدسة في عام 1384م وقد ترك ورائه عملاً ثرياً بالتفاصيل. راجع:

Chareyron, N., *Pilgrims to Jerusalem*, 225.

والبدو المنكررة على الكنيسة، ومن أجل هذا؛ فقد استحسن هؤلاء الرهبان وجود المسجد لهذا الغرض.

أما عن طريقة الأذان: فيصرح نيكولو: "عندما تحين ساعة الصلاة، يصعد أحد المسلمين البرج، وينادي بأعلى صوته على شريعتهم الحزينة، وهكذا يفعلون كل ساعة مثلما نقرع الأجراس"⁽²¹⁾، وعند سيجولي: "أثناء ندائهم يسردون شيئاً من حياة محمد غير الشريفة، وعن صحابته الأشرار، ويقصون أشياء غير شريفة، التي كان يفعلها محمد في حياته، ثم يأمر كل فرد بأن يقتدي بتلك الأشياء ويفعلها، وبهذه الطريقة يحيون مثل البهائم، وينصحون الناس أن يتناسلوا ويتكاثروا"⁽²²⁾، أما الحاج كازولا Casola فقد شبه أذان المسلمين أثناء زيارته للأراضي المقدسة في بيت المقدس بأنه كالنباح، حيث ذكر: "يقف رجل على برج المسجد ليلاً لا يفعل شيء سوى النباح"، أما بخصوص جملة التناسل والتكاثر التي يقولونها في أثناء الأذان، فذكر: "في الليل يصعد كهنة المسجد أعلى البرج ويعوون مثل الكلاب، وعندما سألت مترجمنا عما يقولون، فقد أخبرني أنهم بعد منتصف الليل ينادون على كل من لديه زوجة أو أكثر أن يزيدوا ويتكاثروا على الأرض، وسواء كان هذا صحيح أم خطأ فلا أستطيع أن أجزم به، بالتأكيد هم لديهم نساء كثيرات متزوجات، ولهذا فهم يستطيعوا أن يتكاثروا في العالم"⁽²³⁾.

بخصوص وصف المساجد وعددها، فقد ورد عند أرنولد فون هارف "لا يوجد في هذه المساجد أي من التماثيل أو الأصنام الخشبية أو المنحوتات ولا الصور، لكن لديهم الكثير من اللمبات المضاءة على شرف الرب داخل وخارج مساجدهم، وقد تم إخباري، بل وقد قمت بنفسني بحصر أعداد أغلب المساجد الموجودة بمدينة القاهرة، والتي تُقدر بنحو ستة وثلاثين ألف مسجداً أو كنيسة وثنية، وهي مساجد واسعة ورائعة. ويوجد أعلى كل مسجد برج أو برجين، الذي يصعد الكاهن خمس مرات يومياً؛ ليصرخ ويعلن عن وقت الصلاة لأنهم ليس لديهم أجراس". راجع:

The Pilgrimage of Arnold von Harff, 117-118.

²¹- Poggibonsi, *A Voyage beyond the Seas*, 89.

²²- Sigoli, *Visit to the Holy Places*, 166.

²³- *Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem in the year 1494*, trans. M. Newett, Manchester, 1907, 240-241.

بطرس كازولا: أحد كهنة دير القديس أمبروجو San Ambrogio في ميلانو (وُلد في عام 1450م، وتُوفي في عام 1508م)، وقد أعطى لنا عملاً مُثمراً من خلال رحلته إلى الأراضي المقدسة، كما أمدنا

تطرق الرحالة الإيطاليون في معرض حديثهم عن صيام شهر رمضان أيضاً؛ "يبدأ المسلمون الصيام مع بداية ظهور القمر (هلال) فلا يأكلون أو يشربون طوال النهار، ثم عندما تظهر النجوم في المساء يأكلون مثل الوحوش، ويوجد كاهن لكل مجموعة من الناس يسير ليلاً ومعه طبلّة صغيرة يضرب عليها منادياً: كلوا ولا تناموا، يعزف وينشد أغاني جميلة حتى يستيقظ الناس، وهكذا فإنهم يعيشون مثل البهائم"⁽²⁴⁾.

كان للحج نصيبٌ من كتابات الرحالة والحجاج الإيطاليين؛ فقد تحدث جوتشي عنه أثناء زيارته لمدينة دمشق قائلاً: "في كل عام يذهب الناس إلى مكة، البعض منهم للتجارة، والبعض الآخر للحج حيثما يوجد قبر محمد، إلههم الذي يتضرعون إليه، ويُقدَّر عدد الذين يذهبون كل عام ما يقرب من ستمائة ألف رجل، وكنت بالمدينة عند عودة هؤلاء، وشاهدتُ جزءاً كبيراً من القافلة القادمة، وعند قدومها فإنهم يقيمون احتفالاً عظيماً، لأن منهم من ينتظر زوجاً، أو أباً، أو ابناً، ومنهم من ينتظر ماله، ومن المؤكد أنه شيء رائع أن ترى عودتهم، لأنهم عندما يقتربون من المدينة فإنهم يزينون خيولهم وجمالهم بالفُرش المزركشة، والشخاشيخ والأجراس الصغيرة، وأشياء تصدر أصواتاً"⁽²⁵⁾.

بغفوية ساحرة لوصف ما شاهده؛ فقد بدأ ملاحظاته للجمارك في ميناء البندقية، ثم صور الغلاف الجوي على متن السفينة التي كانت تُقله، كما نقل الأحوال المثيرة أثناء رحلته. راجع:

Chareyron, *Pilgrims to Jerusalem*, 223-224.

²⁴- Frescobaldi and Sigoli, *Visit to the Holy Places*, 50, 167; Suriano, *Treatise on the Holy Land*, 206.

أنكر ابن الحاج ظاهرة التسخير وجعلها من البدع، إلا أنه أشار إلى هؤلاء القوم بأنهم "يُسَحَرُونَ بالطبلة ويطوف بها أصحاب الأرباع وغيرهم على البيوت، ويضربون عليها هذا الذي مضت عليه عاداتهم وكل ذلك من البدع. وأما أهل الإسكندرية وأهل اليمن وبعض أهل المغرب فيُسَحَرُونَ بدق الأبواب على أصحاب البيوت وينادون عليهم قوموا وتسحروا. وأما أهل الشام فإنهم يُسَحَرُونَ بدق الطار وضرب الشبابية والغناء والهنوك والرقص واللهو واللعب وهذا شنيع. وأما بعض أهل المغرب فإنهم يفعلون قريباً من فعل أهل الشام وهو أنه إذا كان وقت السحور عندهم يضربون بالنفير على المنار ويكررونه سبع مرات ثم بعده يضربون بالأبواق سبعاً أو خمساً فإذا قطعوا حُرْم الأكل إذ ذاك عندهم". للمزيد راجع: ابن الحاج، *المدخل*، ج2، ص 255-256.

²⁵- Gucci, *Visit to the Holy Places*, 144-145.

عن الحج؛ يقص فيلكس فابري قائلاً: "يذهب السراقنة الأغنياء في الحج إلى مكة حيث يوجد قديسهم محمد، بالتأكيد في القرآن يذهب عابدين محمد كل عام لمكة وإلى بيت الله، وعليهم أن يطوفوا حوله

من ضمن الأشياء التي كتب عنها الرحالة الإيطاليين، والتي ربما على علاقة بالمعتقدات والشعائر الدينية الإسلامية؛ تبجيل وتكريم السيدة مريم وابنها السيد المسيح، فكما ذكر فريسكوبالدي أن "المسلمين يقدسون مريم العذراء وكل آباء العهد القديم، وعندهم السيد المسيح أعظم نبي بعد محمد، والمسلمون قريبون في أشياء عديدة من إيماننا"⁽²⁶⁾، وتفسيراً لُقُدسية السيدة مريم لدى المسلمين؛ فإنهم ولا سيما، نساءهم، قد حملوا في قلوبهم حباً عميقاً للسيدة مريم، وارتبطت العذراء في أذهانهم بقدرتها على مساعدتهم في الإنجاب؛ لذا تباركن بها وترددن على المزارات التي ترتبط بها أملاً في ذلك⁽²⁷⁾.

وقد زاد سوريانو من كلمات الثناء والشكر والدهشة للمسلمين بشأن تقديسهم للعذراء وابنها، وانتقل إلى تكريمهم لآثار ومعجزات المسيح، فذكر على لسان إحدى الراهبات التي كانت في حوار معه: "أخي، الكلمات لا يمكن أن تصف التفاني الذي يكنه هؤلاء الكفار لهذا الجبل المجيد الذي شهد أسرار إعجازية عن طريق السيد المسيح، ففي إحدى المرات عندما كنت على قمة ذلك الجبل، ومع بعض الرهبان نُقِلَ الموضع حيث كان المسيح يبشر فيه، كنت جالسة بركبتي على الصخور المقدسة، عندها وصلت امرأة مسلمة غريبة بصحبة بعض النساء المسلمات اللاتي كن في زيارة لتلك الأماكن الخاصة بالمسيح، وسألنتي لماذا أُقْبِلُ تلك الأحجار؟ فأخبرتها بأن المسيح اعتاد الجلوس عليها

مرتدين ملابس غير مهيبة، ويرمون بحجارة لفضف الشيطان، ولا يذهب السراقنة فقط إلى مكة لاتباع وصية محمد، ولكن أيضاً لرؤية تابوته المُعلق في الهواء بدون حبل أو سلاسل، والناس منخدعون بهذه الخُدعة، ويعتقدوا أن هذا الجسد مرفوعاً لأعلى بسبب قدسيته". عن حج المسلمين إلى مكة، راجع:

Fabri, F., *The Book of the Wonderings of Brother Felix Fabri*, Vol. 2, Part 2, trans. A. Stewart, London, 1893, 665-675.

²⁶- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 50.

لقد أكد الرحالة والتاجر الكريتي إيمانويل بيلوتي Emmanuel Piloti على أن المسلمين يكتون تبجيلاً وتقديساً للسيدة مريم والسيد المسيح، ففي أثناء زيارته لمدينة المطرية بالقاهرة دار حواراً بينه وبين المسلمين كالتالي: "رأيت العديد من السراقنة ينزعون ملابسهم ويغسلون أجسامهم في مياه من هذا البئر، فقلت لهم لماذا تغتسلون من هذا البئر الذي له علاقة بالإيمان المسيحي؟ فأجابوني بأن هذه أشياء لها إعجاز وتكريم للسيدة المقدسة مريم، ونحن نقدر معجزاتها" راجع:

Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en terre sainte 1420, publié H. Dopp, Paris, 1958, 85; Chareyron, *Pilgrims to Jerusalem*, 117.

²⁷- إبراهيم سعيد فهميم، حركة الحج الأوروبي، ج2، ص 127.

عندما كان يعظ لتلاميذه، عندما سمعت ذلك في الحال استدعت رفقاءها وسجدن بأنفسهن على تلك الأحجار بتفاني وحماسية جعلتني في شدة الذهول لما حدث⁽²⁸⁾.

العادات والتقاليد

مثلما كانت للشعائر الدينية الإسلامية حظاً وافر من كتابات الرحالة الإيطاليين، كانت للعادات والتقاليد أيضاً نصيب من المشاهدة والتدوين، فقد تعجب هؤلاء الرحالة من مشاهدة مراسم حفل زفاف الفتاة المسلمة، وفي هذا الشأن استفاض سيجولي في حديثه عن هذه المراسم؛ فطبقاً لما ورد عنه فإن الزوج يرسل هدايا عديدة إلى منزل العروس نهائياً: "يرسل العريس حملاً يحمل مفروشات، وآخر يحمل أحواضاً وأباريق دمشقية تُعد الأجل في العالم، وآخر يحمل الكتان، وآخر يحمل صناديق من الثياب الرائعة"، وينتقل سيجولي إلى مرحلة تالية من مراحل مراسم الحفل، وهي مرحلة تجهيز العروس في منزلها استعداداً للذهاب بها إلى منزل الزوج، فذكر: "يُصاحب العروس الأقارب والجيران، وهناك مجموعة من النسوة اللاتي تزين العروس وتلبسها سبعة فساتين واحداً فوق الآخر"، ثم بعد ذلك يصل إلى مرحلة الانتقال لمنزل الزوج: "عندما تصل العروس لمنزل العريس؛ فإنها تستل خنجراً من جانبها ثم تعطيه له كهدية، ثم تجلس على أحد الأسرة وبجانبها طست دمشقي، والنساء اللاتي يرغبن في الرقص تذهبن أولاً ناحية العروس لتقدمن لها هدية على قدر استطاعتهن وتضعها على رأس العروس، التي تأخذها وتضعها في الطست ثم تشرع المرأة في الرقص"⁽²⁹⁾.

تحدث سوريانو عن زيارة المسلمين للمقابر بقوله: "كان المسلمون يضعون نبات الريحان على مقابر موتاهم، وكانت لديهم عادة بأنهم مساء يوم الجمعة أو منتصف

²⁸- Suriano, *Treatise on the Holy Land*, 119.

²⁹- Sigoli, *Visit to the Holy Places*, 167-168.

اعتاد الفلاحون أن يطوفوا بالعريس في أنحاء القرية وسط ضرب الطبول ومدح المنشدين، وحوله "الجدعان تخبط بالنباييت" ولا يزالون به حتى يصل إلى بيت العروس حيث يقام حفل صاحب يشترك فيه أصحاب الريباب، والنساء يزغردن وينشرن الملح على العروس خوفاً عليها من الحسد. راجع: الشريبي (يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر)، *هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف*، القاهرة، 1890م، ص 9-10؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، *المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك*، القاهرة، 1992م، ص 136.

الليل أو على الأقل في الفجر، تذهب النساء إلى المقابر، وهن يحملن الريحان والزهور الأخرى، التي يضعونها حول المقبرة، ثم يبكين ويدعين الله أن يرحم موتاهم وأن يخفف من آلامهم؛ لأنهن يعتقدن أن الله يعيد الروح إلى الأجساد⁽³⁰⁾.

الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، من المناسبات الدينية السعيدة، التي كان لها وضع خاص للمسلمين في بلدان المشرق الإسلامي؛ ففي نهاية الثلاثين يوماً بعد الصيام، عندما يأتي القمر الجديد، يقيمون احتفالاً (عيداً) هائلاً، ويتجمعون في أكبر مربع متواجد في المكان، وهناك يضربون الطبول، ويلعبون بأشياء تشبه البالونات، ويغنون الأغاني ويرقصون بالصاجات، ويرفعون أثقالاً كبيرة بأيديهم؛ وهذا الاحتفال يستمر ثمانية أيام وجزء كبير من الليالي، وكل طهارة المكان أثناء فترة شهر الصوم يمكثون طوال الليل في محالهم من أجل بيع اللحوم ومأكولات أخرى؛ لأن المسلمين عادةً لا يطهون في المنزل⁽³¹⁾، وفي الاحتفال بعيد الأضحى: "فالسراقة يحتفلون بالعيد لمدة ثلاثة أيام،

³⁰- Suriano, *Treatise on the Holy Land*, 192-193.

كانت زيارة النساء للقبور من أشنع الأمور لأنها اشتملت على مفاصد عديدة؛ منها ذهابهن في الليل مع الرجال، وكثرة الخلوات وكان فيها أماكن مهيبة لذلك، ثم كشف وجوههن والتحدث مع الرجال الأجانب. وقد تمتعت المرأة في العصر المملوكي بميزات مكنتها من حرية الحركة والتنقل مما جعل ابن الحاج ينتقد خروجهن إلى المقابر، ويستنكر مخالطة الرجال بالنساء عند هذه المقابر ومن ثم كشف عوراتهن مثل اليد والمعصم. راجع: ابن الحاج، المدخل، ج1، ص 268؛ سماح عبد المنعم السلاوي، الأوضاع الحضارية في مصر والشام، ص 236.

من الجدير بالذكر أن الرحالة أرنولد فون هارف تحدث عن طقوس الدفن، وتجهيز الميت عند المسلمين، فذكر: "إذا توفي أحدهم فإن أصدقائه يلبسوه أحسن الثياب، ويجلسوه على كرسي قد أعد لهذا الغرض، ويأتي الأقرباء والأصدقاء ويضع كل واحد منهم بنسأ على خده ثم يأتي الكهنة ويضعون الميت في نعش ويأخذون المال من على خده، ثم يحملونه وهو في نعشه ووجهه مكشوفاً، ويمشون به في الشوارع حتى يصلون به إلى المدفن، ويتبع النعش زوجاته تبكين بصوت عالي، ويضعن القاذورات والتراب من الشارع على أنفسهن حتى يصلن إلى المدفن، ثم بعد ذلك يأخذ الكهنة الجسد ويضعونه تحت التراب، وتستمر النساء في البكاء والوعويل لمدة ثلاثة أيام حتى يأتي الأقارب ويأخذوهن بعيداً، كما أن هؤلاء النسوة ترتدين ملابس ناصعة البياض خلال فترة الحداد" راجع:

The Pilgrimage of Arnold von Harff, 118.

³¹- Sigoli, *Visit to the Holy Places*, 167.

أطلق الرحالة الألماني يوهان شيلنبرجر Johann Schiltberger على عيد الفطر لدى المسلمين أنه "عيد الفصح عند الكفار"، وكتب عن مظاهر الاحتفال به قائلاً: "بعد صيام لمدة أربعة أسابيع فإنهم يحتفلون

وهذا العيد من أجل إبراهيم St. Abraham عندما أمر ابنه إسحاق ليصعد إلى الجبل كي يتم تقديمه تضحيةً وقرباناً للرب⁽³²⁾.

من الواضح أن فريسكوبالدي حكم على الأشياء من خلال دراسته للعهد القديم؛ فطبقاً لما ورد فيه "التكوين، 22" عن الابن الذي أمره إبراهيم أن يقدم نفسه قرباناً لله هو إسحاق، وبالطبع فهذا أمر مخالف لما ورد في التعاليم الإسلامية.

كان للمسلمين عادات خاصة متعلقة بطهي الطعام وإعداده؛ فقد أجمع غالبية الرحالة أن المسلمين لا يطهون طعامهم في المنازل، بل في الشوارع حيث كانوا "يظهون طعامهم عن طريق الطوب الأجر الذي يحترق أفضل من الخشب، لأنه لا يصدر دخاناً أو لهباً، لكنه يتلون باللون الأحمر مثل الحديد الملتهب، ويظل على لونه هذا من الصباح حتى المساء، وكانوا يصنعون ناراً من روث البقر المخلوط بالقش (التبن)"⁽³³⁾، وفي أغلب الأحوال كان المسلمون يأكلون في الشوارع أيضاً، فيذكر فريسكوبالدي: "غالباً يأكلون في الشوارع، حيث يضعون جلدًا على الأرض ثم يضعون الطعام في قدر كبير في الوسط،

بعيد الفصح لمدة ثلاثة أيام، وفي الصباح يذهبون إلى المعبد (المسجد)، وبعد الانتهاء من صلاتهم يتجه القوم إلى منزل الكاهن العظيم (ربما يكون قاضي المدينة) بصحبة رؤساء المدينة والجنود ويُخرجون من منزله قطع من القماش المزخرف والملون بلون الذهب، ثم يضعونها في مقدمة معبدهم (مسجدهم) ويحملون لافتات ورجال الموسيقى يعزفون، ويدخلون المسجد ويخطب فيهم الكاهن حيث أنهم يضعون في يده سيفاً، ويتحدث في الناس ويدعو الله أن يمنحهم القوة ضد أعداء دين محمد. وبعد الانتهاء من الصلاة يحملون الكاهن إلى منزله مصحوباً بالفرق الموسيقية، ثم بعد ذلك يذهبون إلى منازلهم ويمرحون ويبتهجون لمدة ثلاثة أيام". راجع:

Schiltberger, J., *The Bondage and Travels of Johann Schiltberger a Native of Bavaria in Europe, Asia, and Africa 1396-1427*, trans. J. B. Telfer, London, 1879, 70-71;

سماح عبد المنعم السلاوي، *الأوضاع الحضارية في مصر والشام*، ص 214-215.

³²- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 68.

نال أيضاً عيد الأضحى نصيباً من كتابات الرحالة يوهان شيلتبرجر فذكر: "بعد شهر من احتفال المسلمين بعيد الفطر، لديهم عيداً آخر تكريماً لإبراهيم، في هذا اليوم يقتلون (يذبحون) الحملان والثيران، ويعطون للفقير منها لأن الله أوصاهم بهذا، وفي هذا اليوم يذهب الكفار إلى قبر محمد، وإلى المعبد (البيت) الذي بناه إبراهيم". راجع:

Schiltberger, *The Bondage and Travels of Johann Schiltberger*, 71.

³³- Suriano, *Treatise on the Holy Land*, 192.

ويجلسون حوله، وعندما يتواجد آثار طعام حول الفم فإنهم يلحقونه بألسنتهم مثل الكلاب»⁽³⁴⁾.

المناسك الإسلامية عند ريقولدو دا مونتي كروتشه

الحديث عن المناسك الإسلامية⁽³⁵⁾ عند ريقولدو دا مونتي كروتشه كان له طابع خاص ومميز؛ لأنه مكث وقتاً لا بأس به بين زهراني المسلمين في بغداد يتدارس أحوالهم، وينهل من نبعهم الصافي؛ فقد أعلن صراحةً أنه دخل في مناقشات طويلة مع طلاب العلم المسلمين، ومن خلال اهتمامه الجم بدراسة أحوال الإسلام، فقد قام بعدة دراسات حول الإسلام والمسلمين، كان أبرزها "كتاب الحج"⁽³⁶⁾ *Liber Peregrinationis* وفيه تحدث عن بعض المناسك والمعاملات الإسلامية التي كان شاهد عيان لها.

³⁴- Frescobaldi, *Visit to the Holy Places*, 49.

أكد أرنولد فون هارف على أن المسلمين في القاهرة يطهون الطعام في الشوارع وبالتالي يفتشون الأرض ليتناولوه، كما أنه فسّر لماذا يعتمد المسلمون على روث البقر المخلوط بالقش في إيجاد نار لتسوية الطعام؛ فذكر "أنهم يطهون الطعام عن طريق روث الجمال لأن الخشب كان نادراً، وكان عليهم أن يجلبوه من قبرص، وكان يُباع بالرطل، فلا يوجد خشب في مصر باستثناء خشب النخيل وهو سيء". راجع:

The Pilgrimage of Arnold von Harff, 109-110.

³⁵- دراسة ريقولدو حول تلك المعاملات الإسلامية جديرة بالاهتمام لعدة أسباب: الأول، أنها تحتوي على قدر كبير من الأصالة، حيث أن تلك المناسك الإسلامية ذُكرت بواسطة عدد قليل من كُتّاب العصور الوسطى، ودراسته تشمل على تفاصيل فريدة، من المؤكد أنه حصل عليها بواسطة تجربته الشخصية. العامل الثاني، لم يكن لتلك التفاصيل الدقيقة استخلاصها من قراءة الأدب الإسلامي فقط، ولكن يبدو أنها نتيجة الملاحظة الشخصية لتلك الأعمال الفعلية للمسلمين، فعلى سبيل المثال؛ بينما لاحظ العديد من الكُتّاب المسيحيين أن المسلمين يصلون خمس مرات في اليوم الواحد أو أن الصلاة تسبقها عملية الوضوء (كلتا الحقيقتين يستطيع المرء أن يستدل عليهما من القرآن)، فإن ريقولدو وصف بالتفصيل تعبيرات الوجه والأوضاع الجسدية للمسلمين أثناء صلاتهم. أما العامل الثالث، عمل ريقولدو إيجابياً، إلى حد أنه يعلن ويبرز بعض المناسك (العبادات) الإسلامية حتى تكون قابلة للمقارنة مع المناسك المسيحية. راجع:

Tvrtkovic, R., *The Ambivalence of Interreligious Experience: Riccoldo da Monte Croce's Theology of Islam*, Ph. D., University of Notre Dame, Indiana, 2007, 168-169; Tvrtkovic, R., *A Christian Pilgrim in Medieval Iraq, Riccoldo da Montecroce's Encounter with Islam*, Turnhout, Belgium, 2012, 49.

³⁶- كتاب الحج: كُتِب باللغة اللاتينية بين عامي (1300-1299م)، وصف فيه ريقولدو رحلته إلى بلدان المشرق الإسلامي. وهو عمل تقليدي للحج إلى الأماكن المسيحية المقدسة، تحدث الجزء الأول منه عن

تقول ريتا جورج تفرتكوفتش Rita George Tvrtkovic: "أن معظم مسيحي العصور الوسطى لم يلقوا الضوء على الفضائل الإسلامية ليمتدحوا في الإسلام⁽³⁷⁾، بل على العكس، كان لديهم دوافع أخرى؛ ليس فقط لتوجيه اللوم على المسيحيين المعارضين، ولكن لإثبات ازدواجية النبي ﷺ، أو لإظهار قصور في الطقوس والعبادات الإسلامية مقارنة مع مثيلتها المسيحية، ومسيحيو القرون الوسطى لم يتجاهلوا بالكلية المناسك الإسلامية، لذا فهم تحدثوا عنها، لكن بطريقة جعلتهم يحولوها إلى مسار يخدم الحجة ضد الإسلام، إلا أن بعض أعمالهم التي تناولت تلك المناسك الإسلامية كانت أكثر صعوبة للتوضيح والتفسير، ويُعد ريقولودو خير مثال على ذلك؛ فالصورة السلبية للإسلام التي رسمها في عمله "ضد شريعة السراقنة" كانت منسجمة ومتفقة في أغلب الأحيان مع ما صاغه معاصروه، ورغم ذلك فإن أعمال ريقولودو اشتملت، ليس فقط على الجدل ضد الإسلام،

هذه الرحلة، وجزء آخر خصصه ريقولودو لبيتناول خلاله بعض الأعمال والمناسك الإسلامية التي أبدى لها اندهاشاً وإعجاباً كالتفاني والإخلاص في الصلاة، والصدقة "الزكاة"، وتبجيل اسم الله، ورحمة المسلمين بالغرباء، وما إلى ذلك من الأعمال الأخرى. للمزيد، راجع:

Burman, E., "Riccolodo da Monte di Croce", in *Christian-Muslim Relations. A Bibliographical History*, Vol. 4 (1200-1350), ed. D. Thomas et al., Leiden-Boston, 2012, 684.

³⁷ - من بين الذين تناولوا الأعمال والمناسك الإسلامية في العصور الوسطى: بطرس ألفونسو Petrus Alfonso الذي تحدث عن أركان الإسلام الخمسة، كما تناول موضوع الصوم في الإسلام وتعرض لبعض أحكام الصوم؛ فقال إن المرأة الحامل والمسافر والمريض، جاز لهم أن يؤجلوا من صيامهم، علاوة على ذكره لمناسك الحج، وعمله هذا ينم، على أقل تقدير، معرفته بالوصف القرآني والحديث النبوي لتلك المناسك الإسلامية. من ناحية أخرى ناقش ويليام من طرابلس William of Tripoli موضوع الصلاة وبعض الشعائر الإسلامية الأخرى، وكذلك الراهب الكلوني بطرس المبجل Peter the Venerable والذي من خلال عمله، حاول أن يبدي الجهل حول معرفة الإسلام بين قرنائه الرهبان، واعترف بأن الدين الإسلام يحث على الصدقة وبعض أعمال الرحمة وامتدح الصلاة، وسريعاً، أشار بطرس بأن تلك الأعمال الإسلامية الصالحة ما هي إلا حيلة قد روج لها محمد حتى لا يعيب عليه أحد، وأيضاً أن يجذب أتباعاً جدد لديانته. راجع:

Peter the Venerable, *Summa totius haeresis Saracenorum*, in *Peter the Venerable and Islam*, ed. and trans. J. Kritzeck, Princeton, 1964; William of Tripoli, *Notitia de Machometo*, ed. and trans. Engels, Wurzburg, 1992; Alfonso, P., *Dialogi contra Iudaeos*, ed. K. Mieth, Zaragoza, 1996; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 168.

ولكن أيضا ازدواجية في التعامل مع بعض المناسك الإسلامية، وأحياناً بعض الثناء والمدح⁽³⁸⁾.

بينما كانت كتابات ريقولدو تحتوي على تعليقات مختصرة حول نفس المناسك الإسلامية التي استشهد بها مسيحيو القرون الوسطى الآخرين كالوضوء، والصلاة، والصوم، والصدقة، وتحريم الخمر والخنزير، والختان، فإن "كتاب الحج" أعطي تفصيلاً لممارسات إسلامية لم يطرحها أي من الآخرين، وقد سماها هكذا: التفاني في الدراسة، كرم الضيافة، تبجيل وتقديس اسم الله، الحب والأخوة بين المجتمع المسلم، والسلوك الوقور. وقد يتساءل البعض لماذا الأغلبية الكبيرة من اللاتين في القرون الوسطى حصروا مناقشتهم للممارسات الإسلامية من خلال تلك القائمة القصيرة: كالصلاة، والصوم، والصدقة، والوضوء، والختان، وتحريم الخمر ولحم الخنزير، فماذا عن بقية الطقوس الإسلامية الأخرى؟ فالإجابة المقترحة تكمن في سببين؛ الأول: باستثناء الشعوب الإيبيرية، فإن معظم الأوروبيين لم تكن لديهم خبرة واتصال مباشر بالمسلمين⁽³⁹⁾، ولهذا فقد كانوا مجبرين على الاعتماد بشكل خاص على المعلومات الموجودة في نفس المصادر القليلة التي تحدثت عن المسلمين، والتي دُونت في وقت سابق، السبب الثاني: أن المسيحيين ناقشوا تلك المناسك الإسلامية من أجل مصلحة خاصة، وليقيموا الحجة على الإسلام، ولذلك فلم تعد هناك حاجة في تضمين جميع الأعمال الإسلامية، أو لوصفها الوصف الكامل، ولكن كما بينا، لعرض "زيف" الإسلام باستخدام وصف تلك المناسك⁽⁴⁰⁾.

³⁸- Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim in Medieval Iraq*, 44.

³⁹- رأيت الباحثة تفرتكوفتش أن غالبية الأوروبيون لم تكن لهم خبرة واحتكاك مباشر مع المسلمين، ولكن الأحداث على مر التاريخ تثبت عكس ذلك؛ فقد شهدت مدينة صقلية أثناء الفتح الإسلامي لها احتكاكاً مباشراً بين الطرفين، الإسلامي والأوروبي، واستمر حتى بعد الغزو النورماني لها، وكان للمؤثرات الإسلامية والعربية دورٌ كبيرٌ في النشاط الفكري والإداري الأوروبي خلال هذه الفترة. للمزيد حول هذه القضية؛ راجع: عزيز أحمد، *تاريخ صقلية الإسلامية*، ت. أمين توفيق الطيبي، طرابلس، 1979م؛ جورافيسكي، *الإسلام والمسيحية؛ قاسم عبده قاسم، المسلمون وأوروبا التطور التاريخي لصورة الآخر؛ عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي*، القاهرة، 2004م.

⁴⁰- Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 170; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim in Medieval Iraq*, 47-48.

أولى تلك المناسك الإسلامية التي أوردتها ريقولودو في "كتاب الحج" كانت الصلاة: فقد بدأ ريقولودو حديثه عن هذا الجانب باعترافه بأنه كان مذهولاً بإخلاص وتفاني المسلمين تجاه الصلاة، فقد كان ذهوله واندھاشه نتيجة لملاحظاته الشخصية من خلال أداء المسلمين للصلاة يومياً، فهو أخبر قراءه بأن خبرته قد اكتسبها من خلال معاشته مع قافلة إسلامية لمدة ثلاثة أشهر ونصف في الصحاري العربية والفارسية، وأثناء تلك الفترة كان قادراً على ملاحظة كيف يصلي المسلمون، وما رآه قد أقنعه تماماً بالتزامهم الجاد تجاه الصلاة لدرجة أنه كان يكرر كلمات "التفاني" و"الاهتمام" عدة مرات خلال جمل قصيرة. كما لاحظ أن سائقي الجمال في البرية لم يكن هناك خطر يمنعهم من أداء الصلاة في أوقاتها المحددة⁽⁴¹⁾.

انتقل ريقولودو إلى مظهر آخر من مظاهر تفاني المسلمين في الصلاة تضمنت عدة حركات وهمهمات، كما تصورها، فقد شاهد بعض المسلمين أثناء صلاتهم؛ وجوههم تتلون كثيراً، بعضهم يصبح مغشياً عليه، بينما آخرون يتمايلون، يغيرون من أصواتهم، أو يميلون رؤوسهم، بينما البعض الآخر يبدو أن الشياطين قد تملكته، في هذا المضمار صرحت ريتا تفرتكوفتش أن ريقولودو يصف المناسك الصوفية للصلاة بدلاً من الصلوات الخمسة الرسمية (المفروضة)، وعلى الرغم من ذلك، فتلك الحركات غير العادية تعزز اعتقاد ريقولودو فيما بعد أن المسلمين متفانين بدرجة كبيرة في الصلاة؛ لأنهم على استعداد كبير لخضوع أجسامهم بشكل تام⁽⁴²⁾.

⁴¹- Riccoldo de Monte Croce, *Peregrination en Terre Sainte et au Proche Orient Texte latin et traduction*, trans. R. Kappler, Paris, 1997, 160; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, p52; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 169.

⁴²- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 160; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 52; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 173-174.

يبدو أن استنتاج تفرتكوفتش بإشارة ريقولودو لصلاة الصوفيين في غير محله، فقد كان الصوفيون يؤدون الصلاة مثل بقية المسلمين لا يحركون ساكن ولا يهتمون أو يتمايلون، إلا إذا كان ريقولودو يقصد بذلك مجالس الذكر لدى الصوفية⁽⁴³⁾

من النقاط التي ذكرها ريقولودو في عمله طالما أنه تناول الصلاة بشكل مفصل : موضوع الاغتسال والوضوء، فكما صرح، أنه انبهر مع زملائه المسيحيين من عملية الوضوء قبل الدخول في الصلاة، ولاحظ أن المسلمين يجعلون أجسامهم نظيفة بدرجة كبيرة، ويتحقق ذلك من خلال الاغتسال، وبدون ذلك لن يتمكنوا من أداء الصلاة، ثم يستمر في حديثه عن أجزاء الجسم التي يجب غسلها من خلال عملية الوضوء، وبالترتيب: أولاً أجزاءهم الخاصة - ربما قصد عملية الاستنجاء التي تسبق الوضوء- ثم الأيدي، الوجه، وأخيراً باطن القدمين، ولاحظ أن الاغتسال قبل الصلاة مُلزم عند جميع الملل (الطوائف)، وبعد ذلك عرض لتفاصيل محددة عن الوضوء على المذهب الحنفي، والذي يقول "أنهم يكونون أكثر مثالية من الآخرين"، فذكر أنهم إذا لامس أحدهم قطاً أو كلباً أو حماراً؛ فيتحنم عليه الاغتسال ما لا يقل عن خمسمائة ألف دلواً من المياه؛ ولتحقيق ذلك فإنهم عادةً يغتسلون في أحد الأنهار، ثم يتوجب عليهم وضع أصبعهم في فتحة الشرج ويتحسوا رائحته ليتأكدوا من نظافتهم على أكمل وجه⁽⁴⁴⁾.

يبدو أن ريقولودو قد تجاوز في حديثه عن مسألة الوضوء، خاصة الوضوء عند الحنفية، فكلامه مبالغ فيه، فلا يُعقل أن يغتسل المسلم بخمسمائة ألف دلو من المياه إذا لمس حيواناً، أو أن يضع أصبعه في فتحة شرجه ليتأكد من سلامة وضوئه، كل هذه الأشياء تبدو غريبة، ربما قصد ريقولودو من ورائها تشويه العقيدة الإسلامية لدى قرائه من المسيحيين، وثمة استنتاج آخر بشأن حديث ريقولودو عن قضية الاغتسال والتأكد من طهارة

⁴³ - عن الصوفية راجع: السلمي، (أبو عبد الرحمن)، *طبقات الصوفية*، تحقيق/ نور الدين شريبه، دار الكتاب النفيس، سوريا، 1953م؛ ابن الملقن، (سراج الدين أبو حفص)، *طبقات الأولياء*، تحقيق/ نور الدين شريبه، الخانجي، القاهرة، 1973م؛ فاطمة فؤاد، *السماع عند صوفية الإسلام*، القاهرة، 1997م.

⁴⁴ - Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 160; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 53; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 175.

البدن التي ذكرها آنفاً؛ فربما رأى المسلمين وهم يمارسون عملية الاستنجاء طبقاً لما يلائم طبيعة وظروف هذا العصر (45)

بالرغم من استعراض ريقولودو لتفاصيل عملية الاستنجاء والوضوء، والحديث عن فقه الوضوء في المذهب الحنفي، وعرضه لبعض جوانب الصلاة؛ فهو لم يذكر ما يقوله المسلمون عندما يؤدون الصلاة، كما لم يناقش المراحل المختلفة لعمليات السجود أو الركوع في الصلوات الخمسة اليومية، وتقييماً لهذا؛ فإن وصفه لصلاة المسلمين تقرب من السطحية كأقرانه مثل بطرس ألفونسو Petrus Alfonso، الذي سرد قائمة كل أجزاء الجسم التي يتم غسلها أثناء عملية الوضوء بشكل نمطي ظاهري، وعلى الرغم من بداية هذا القسم بثناء عظيم لإخلاص وتفاني المسلمين تجاه الصلاة، فإن ريقولودو ينتهي إلى ملاحظة أكثر من أن تكون تقليدية عن طريق تسليط الضوء لجوانب الصلاة الإسلامية التي بدت غريبة للمسيحيين مثل صلاة الصوفيين الذين يرقصون، ويصابون بالإغماء، والذين يبدو وكأنهم ممسوسين وقد تملكهم الشيطان، وكذلك قلق الحنفيين (أصحاب المذهب الحنفي) حول نظافة فتحات الشرج (46).

العمل الثاني الذي تحدث عنه ريقولودو كان **التفاني في الدراسة والتعلم**؛ فقد لاحظ أن المسلمين يأتون من كل أنحاء العالم الإسلامي للدراسة والتعلم في بغداد، حيث أعظم المدارس والأديرة والمعلمين (47) وأكد ريقولودو بشكل صريح على وجود تشابه كبير

⁴⁵ - حول مسألة الوضوء والاعتسال راجع: عبد الرحمن الجزيري، *الفقه على المذاهب الأربعة*، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

⁴⁶ - Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim in Medieval Iraq*, 53-54.

⁴⁷ - من أمثلة هذه المدارس: المدرسة النظامية، والمدرسة المستنصرية؛ فالمدرسة النظامية اختلف المؤرخون وأهل العلم حول بداية نشأة المدارس الإسلامية، منهم من قال إنها ظهرت في عهد نظام الملك السلجوقي الذي أنشأ المدرسة النظامية عام 1066م/459هـ ومنهم من قال إنها ظهرت قبل ذلك. وكان من أهم الأهداف التي سعت المدرسة النظامية في تحقيقها: تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، والأداء الأمثل للتكاليف الشرعية المختلفة، ونشر الفكر السني ليواجه تحديات الفكر الشيعي، وإيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني ونشره. أما المدرسة المستنصرية: فقد بناها الخليفة أبو جعفر المستنصر بالله العباسي عام 1233م/631هـ، ووقفت على المذاهب الأربعة، وقد بناها المستنصر على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة وعمل فيها مارستاناً، ورتب فيها مطبخاً للفقهاء، وخصص للفقهاء دينارين في الشهر، ونقلت إليها الكتب وهي مائة وستون حملاً من الكتب النفيسة، وعدد فقهاؤها مائتان وثمانية

بين مؤسسات الدراسة المسيحية والإسلامية، وذكر بأن المعاهد والمؤسسات البغدادية مكرسة فقط للدراسة والتأمل "مثلما يحدث في أديرتنا العظيمة"، كما ذكر: "لديهم العديد من أماكن الدراسة المخصصة للدراسة والتأمل كما هو في أديرتنا العظيمة"⁽⁴⁸⁾.

وأبدى ريقولودو إعجاباً ببساطة الطلاب المسلمين والذين، كما يرى، يعيشون في "أقصى درجات الفقر"، هذه الحياة التشفية ترعاها وتشجعها تلك المؤسسات التعليمية ببغداد فهم يقدمون لكل طالب الاحتياجات الأساسية الهامة فقط، والتي تشمل على: حجرة صغيرة (صومعة)، الخبز، الماء. ليس من المتوقع لريقولودو، الدومينيكاني، الذي يتحدث عن فاقة الفقر أن يعرب عن تقديره لجوانب النقشف في حياة الدارس والعالم المسلم. وبالفعل، فطبقاً لوصف ريقولودو، الزهد والنقشف المطلوب للباحثين في بغداد والرهبان المنتمين لطائفة الدومينيكان يبدو متشابه تماماً؛ على سبيل المثال، الأصول والمبادئ الدومينيكانية القديمة تنص على: أن المبشرين والدعاة الذين هم في سفر وترحال، لا يُسمح لهم سوى بالملابس على ظهورهم، والضروريات مثل الكتب⁽⁴⁹⁾.

انتقل ريقولودو لوصف سلوك وأداب قاعة الدرس؛ فقد لاحظ أن كلا من الطلاب والمدرسين على حد سواء يخلعون نعالهم قبل دخول قاعة الدرس لدراسة القرآن، ويبدو أن ريقولودو أبدى إعجابه من المدرس نفسه، خاصة أنه لاحظ مهارات إدارة قاعة الدراسة من الأساتذة، والملاحظ فيها مقدرتهم على إدارة المناقشات عن طريق التواضع واللطف الجم⁽⁵⁰⁾

وأربعون فقيهاً من المذاهب الأربعة. للمزيد، راجع: ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج 15، ط 2، دار ابن كثير، دمشق، 2010م، ص 199؛ السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، دار ابن حزم، ط 1، بيروت، 2003م، ص 361-362؛ الذهبي، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان*، ج 14، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ص 11؛ علي محمد الصلابي، *دولة السلاجقة وبيروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والصليبي*، القاهرة، 2006م، ص 278-283.

⁴⁸- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 158; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 50; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 171.

⁴⁹- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 158; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 50-51; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 172.

⁵⁰- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 160; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, p.51; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 172.

بالرغم من إعجاب ريقولدو بالمدارس الإسلامية بمدينة بغداد؛ فقد أفصح عن سخطه وغبه على المدارس القرآنية في مدينة تبريز Tabriz مُدعياً: "تم تأسيس هذه المدارس للتكفير بالسيد المسيح والقديس يوحنا، المُبشر صاحب أحد الأناجيل"، وبمقارنته للزهد الإسلامي في كتاب الحج، فإنه ادعى في موضع آخر أن "العرب على وجه الخصوص" يميلون إلى "الشراهة والعيش الرغد" وأن المسلمين "شهوانيون ومتعلقون بالدنيا ونعيمها" ويضيف: "لكن هناك مسلمين آخرين مُتعلمين ومستقيمين"⁽⁵¹⁾

فيما يبدو أن ريقولدو يميز بين صنفين من المسلمين؛ أقلية تتسم بالحكمة والثقافة والتعليم العالي، وآخرون غير ذلك، ومن هنا يتضح أن مدارس تبريز، التي انتقدها ريقولدو تضم بين طياتها فكر أعمى "ومعلمين بسطاء"، بينما مدارس بغداد، التي يقارنها ريقولدو من الناحية الإيجابية بالمراكز الأوروبية التعليمية، تتألف من العديد من الحكماء المسلمين الذين يتصفون بالاستتارة والعلم⁽⁵²⁾

الزكاة أو الصدقة، الجانب الثالث الذي تضمنه عمل ريقولدو عن المسلمين؛ فقد استهل الحديث عنه بإخبار جمهوره المسيحي أن المسلمين يقدمون صدقة عظيمة تجاه الفقير، وقد وصف ريقولدو كيف أن المال يتم تخزينه بمجرد إتمام عملية التبرع، وكيف يتم توزيعه؛ على سبيل المثال، بعض من المال يتم تخصيصه لتحرير العبيد في جميع أنحاء العالم، ويعرض ريقولدو سبب إضافي، بجانب ما هو مُبين، لماذا يحرص المسلمون على إطلاق سراح العبيد: هم يقولون "أفتدي هذ من أجل روح أبي وأفتدي تلك من أجل روح أمي". ويضيف أن فقراء المسلمين الذين لا يستطيعون أن يحرروا إنساناً؛ فهم يحرروا الطيور التي في الأقفاص من أجل نفس السبب، ومائل بين هذه الممارسة وبين التقليد الكاثوليكي لتلاوة الصلوات أو تقديم صدقات من أجل تحرير أرواح الأحبة من العذاب في العقيدة المسيحية⁽⁵³⁾.

وصف ريقولدو للصدقة الإسلامية شمل أيضاً جانب الرفق بالحيوانات؛ فقد لاحظ أن المسلمين يعملون على توفير غذاء الكلاب في وصاياهم، وعندما لا يوجد مثل هذا البند

⁵¹- Riccoldo, *Refutation of the Koran*, 12, 38; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, p.173.

⁵²- Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, p.174.

⁵³- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 162; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 54; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 177.

في الوصايا؛ فإن هذا العمل يتعهد به بعض الناس للاهتمام بتلك الكلاب، المسلمون أيضاً يعطون خبزاً "كصدقة" لطيور النهر، ويؤكد ريقولودو على ذلك بأن شاهد بنفسه إطعام منتظم للطيور في كل من مدن بغداد ونيينوى Nineveh⁽⁵⁴⁾.

أنهى ريقولودو حديثه عن الصدقة الإسلامية بتوفير المسلمين الرعاية الطبية للمرضى العقلانيين (المجذوبين)؛ حيث أن الدولة وفرت لهم مكاناً قريباً من المدينة، وزودته بالرعايا المثلّى من الطعام والعاملين على راحتهم، وكذلك أفضل الأطباء. وكل هذه الأشياء قد تحمّل ثمنها المجتمع، وربما يقصد ريقولودو هنا التبرعات، أو الصدقات التي يقدمها أفراد المجتمع الإسلامي. ولم يذكر ريقولودو ما إذا كان قد زار هذه المؤسسة بنفسه، لكن على أية حال، من الواضح أن وجود هذا المكان المخصص لرعاية المرضى العقلانيين قد أعجبه كثيراً وأعطى له مثلاً ملموساً لمدى رعاية المسلمين لهؤلاء الأفراد⁽⁵⁵⁾.

المحور الرابع من حديث ريقولودو كان **كرم الضيافة**؛ فعلى الرغم من أنه صرح بأن المسلمين عامةً والعرب خاصةً يتسمون بكرم الضيافة، ولكن في واقع الأمر إن العديد من مسيحي العصور الوسطى الآخرين لم يدرجوا كرم الضيافة في قوائمهم المتعلقة بعبادات المسلمين؛ وليام الطرابلسي من المستثنين، حيث ألمح إلى كرم الضيافة فقط في معرض

⁵⁴- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 162-164; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 55; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 177-178.

⁵⁵- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 164; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 55; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 178.

ذكر بنيامين التطيلي، وهو يهودي من شبه الجزيرة الإيبيرية، عندما زار بغداد في أواخر القرن الثاني عشر؛ وصف ما يبدو مشابهاً لتلك المؤسسة العلاجية التي عرضها ريقولودو، فيقول: "أن الخليفة بنى على الجانب الآخر من النهر ... مستشفى يشتمل على عدة حجرات من أجل المرضى الفقراء الذين يأتون لتلقي العلاج، ويوجد ما يقرب من ستين طبيباً لمعالجة المرضى وتوفير الأدوية لهم والخليفة يمدّهم بما يحتاجونه من منزله (بيت المال). وكل مريض يأتي إلى هذا المشفى يتلقى علاجه على نفقة الخليفة. ويوجد أيضاً مبنى يُدعى دار المارستان حيث أنهم يهتمون بالأفراد الذين يصابون بالمرض العقلي، ويقضون فترة علاجهم في هذه المشفى على نفقة الخليفة، ويقوم أطباء الخليفة بتفقدهم مرة في كل شهر فيسرحون من عاد إلى صوابه ليعود إلى أهله". للمزيد؛ راجع:

The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Vol. I, trans. and ed. A. Asher, New York, 1965, 99-100.

رحلة بنيامين التطيلي 561-569هـ/ 1165-1173م، ترجمة عزرا حداد، تقديم عبد الرحمن الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001م، ص 298.

حديثه عن كرم ضيافة مساجد المسلمين حيث قال: "إن منازل الصلاة دائماً تكون مُصانة، ومع ذلك يظل الباب مفتوحاً؛ الغرباء، الذين يدخلون، من الممكن أن يمكثوا فيه"⁽⁵⁶⁾، أما ريقولودو فقد وضع ترفيماً لكرم الضيافة بين الأعمال الإسلامية، وأردف جملة: "ودهم تجاه الغرباء" *De affabilitate ad extraneos*؛ حيث بدأ بذكر أعظم الجوانب الأساسية لكرم الضيافة الإسلامية والتي تشمل: الغذاء والحماية الممنوحة لمن يطرق الأبواب، ثم بعد ذلك استمر في وصفه لكرم ضيافتهم عن طريق تكرار استخدام عبارات شبيهة بالآية في الكتاب المقدس: "هم استقبلونا كملائكة الرب"، ويقول إنه خاض تجربة هذا النوع من كرم الضيافة في كل مكان حل به ليس فقط في المنازل الخاصة بالأفراد، ولكن حيثما ذهب، في المساجد والمدارس والأديرة⁽⁵⁷⁾.

أعلن ريقولودو أن كرم ضيافة المسلمين ليس فقط راجع إلى دماثة أخلاقهم المتأصلة، ولكن أيضاً إلى تحضرهم *urbanitas*، ويُعد هذا اختيار مثير للكلمات - وقد استخدم ريقولودو الكلمة "تحضر" مرتين في هذا الموضوع القصير - فهناك من مسيحي العصر الوسيط أكد على همجية المسلمين وأنهم غير متحضرين، فقد اقتبس توماس أكويناس اللفظ التوراتي "وحوش الصحراء الهائمون" وأطلقه على المسلمين، بينما أخبر بطرس ألفونسو قرائه بأن "الرجال في زمن محمد لم يكن لديهم لا شريعة ولا كتاب مقدس، وكانوا يجهلون كل الأشياء الجيدة عدا الحرب والفلاحة"⁽⁵⁸⁾.

⁵⁶- Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 60; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 183.

للمزيد؛ راجع:

William of Tripoli, *Notitia de Machometo*, ed. and trans. Engels, Wurzburg, 1992, 256.

⁵⁷- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 166; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 60; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 183;

الكتاب المقدس، الرسالة إلى العبرانين، الإصحاح 13، 2.

⁵⁸- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 166; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 60.

للمزيد راجع:

Thomas Aquinas, *Summa contra Gentiles*, trans. A. Pegis et al., I,6; Alfonso, *Dialogi contra Iudaeos*, ed. K. Mieth, Zaragoza, 1996.

انبهر ريقولودو أشد الانبهار بالمعاملة المتحضرة والمهذبة التي تلقاها في منازل المسلمين "النبلاء والمتعلمين" لدرجة أنه ماثلها بنوعية كرم الضيافة التي وجدها من أتباعه من الدومينيكان: "إنهم استقبلونا بحفاوة شديدة لدرجة أن تلك الحفاوة بدت في أغلب الأحيان لنا أننا وجدنا حقاً مضيفين لنا، هؤلاء المضيفين الذين رحبوا بنا بحرية كما الإخوة في منازلهم"⁽⁵⁹⁾.

السلوك الوقور؛ محور من محاور المناسك الإسلامية الذي سلط ريقولودو الضوء عليه، وجاء تحت مسمى *grauitas in moribus*، وقد أبدى إعجاباً شديداً بالسلوك المستقيم لمسلمي بغداد، فمن الواضح أن إعجابه نابع من تجربته الشخصية؛ فبيدأ الراهب مناقشته حول الخلق الإسلامي بوصف موقف ما، فقد كسب المسلمون احترامه من السلوك الوقور الذي يحملونه في أنفسهم فيقول ريقولودو: "سلوكهم كريم للغاية لدرجة أنك لا تستطيع أن ترى هناك مسلماً يرفع رأسه عالياً أو تكون عيونه مرتفعة أو رقبته متصلبة أو صدره منتفخ أو أذرع ممتدة. ولكن، مشيتهم، حتى الأولاد الصغار، مستقيمة، كما لو كانوا رهباناً مثاليين بأخلاق صارمة"⁽⁶⁰⁾.

يبدو أن ريقولودو عمل على خلق اتصال بين مسلك ما وصفه أخلاقية هنا؛ فقد تبني أحد قواعد القديس أوغسطين التي تنص على: "في مشيتك، ووقوفك، وكل حركة، لا تدع شيئاً يحدث من شأنه الإساءة أو الأذى لأي أحد يراك، لكن تصرف بشيء يجعل طريقك مقدسة (مبجلة) للحياة"، ونتيجة لهذا فقد آمن ريقولودو هو وأتباعه من الدومينيكان أن السلوك الخارجي المعتدل (المتواضع أو المحتشم) يعبر ويحفظ القداسة الداخلية، وثمة اتصال بين المظهر الخارجي والموقف الداخلي فيما هو معمول به في القرآن، حيث أن الملابس والسلوك المعتدل (المحتشم) مفروض على كل المؤمنين⁽⁶¹⁾.

⁵⁹- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 166; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 60-61; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 183.

⁶⁰- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 166; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 58; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 181.

⁶¹- Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim in Medieval Iraq*, 58-59; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 181.

للمزيد راجع:

Rule of St. Augustine, IV, ed. L. Verheijen, in *La regle de saint Augustin*, Etudes Augustiniennes, 1967.

ثمة إشارة أخرى تدل على الخلق القويم للمسلم، طبقاً لريقولدو؛ ألا وهي نوعية الموسيقى المفضلة بينهم؛ فقد لاحظ ريقولدو أنه لم يسمع أحداً من المسلمين يغني أغاني ماجنة، لكن الموسيقى التي كان يسمعها بين المسلمين هي الدينية فيقول: "لم أتذكر أنني سمعت أغنية مدنسة، لكن غناءهم كان دوماً في الثناء على الله وتمجيد شريعته ورسوله"، علاوة على هذا؛ فقد أضاف ريقولدو أنه لاحظ أيضاً أن أخلاق المسلمين تتميز بالافتقار التام من القيل والقال والسخرية فيما بينهم: "لا أحد أبداً سخر أو استخف أو وبخ شخصاً آخر"⁽⁶²⁾.

تقديس لفظ الجلالة "البسملة"، الممارسة التالية في عمل ريقولدو؛ فهي العبارة التي تسبق بداية كل سور القرآن الكريم عدا السورة التاسعة، فرؤية ريقولدو لتلك الممارسة الإسلامية المميزة يبدو دقيقاً ومتعاطفاً حيث ذكر: "هم يأخذوا أكبر قدر من الحيطة في عدم فعل أو قول أو كتابة أي شيء مهم إلا وكانت البسملة في مقدمة هذا الفعل، أيضاً يبدأوا بها في جميع الخطابات التي يرسلونها لبعضهم البعض، هم يكتبون باحترام ووقار لفظ الجلالة ولهذا السبب هم يسعون باهتمام أن يتجنبوا تحطيم أو تمزيق أو إلقاء أي شيء مكتوب عليه لفظ الجلالة، وإذا وجدوا قطعة من الورق مكتوب عليها البسملة أو لفظ الجلالة، يلتقطونها باحترام ويضعونها عالياً في فتحة في الحائط خشية أن تطأها الأقدام"⁽⁶³⁾

اعتقد ريقولدو في أهمية الكتابة كشكل من أشكال التعبير الديني في الإسلام، والطبيعة المقدسة والفعالة من كتابة الكلمات، خاصة لفظ الجلالة، واستمر ريقولدو في

القرآن الكريم، سورة النور، الآيتين 30، 31

⁶²- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 166; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 59; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 182.

راجع: القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآيتين 11، 12.

⁶³- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 164; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 56; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 178-179.

للمزيد راجع:

Tvrtkovic, "Riccoldo da Montecroce on Bismillah and Salawat", in *Ritus infidelium: Miradas interconfesionales sobre las practicas religiosas en la Edad Media*, ed. J. Gazquez et al., Collection de la Casa de Velazquez, (Madrid, 2013), 1-14.

التأكيد على أهمية لفظ الجلالة بالانتقال إلى وصف الاحترام والتبجيل اللذان بهما يذكر المسلمون اسم الله: "عندما يأتون إلى اسم الله وهم يقرأون أو يكتبون، فإنهم لا يذكرون الاسم" منفرداً، بل دائماً يضيفون عليه بعض الثناء مثل "الحمد لله" أو شيء من هذا القبيل"، ثم بعد ذلك يصف العواقب لمن لا يظهر احتراماً لاسم الله: "إذا سب أحد المسلمين الله أو أحد الأنبياء، فإنه لن يُسمح له بالعيش والحياة"⁽⁶⁴⁾

أخيراً فإن وصف ريقولودو للبسملة يوضح أنه كان لديه فهم أكثر وعلى دراية بالأدب الإسلامي؛ فعندما وضع قائمة بأعمال المسلمين الكاملة، كان مهتماً بأن يضع هذا العنوان "تبجيل اسم الله Reverence for the name of God" وليس مجرد "تبجيل الله Reverence of God". هذا من شأنه يوحي بمعرفته أن البسملة تعكس التركيز الخاص للإسلام على الاسم القدسي الإلهي ذاته⁽⁶⁵⁾.

آخر المناسك الإسلامية التي ذكرها ريقولودو كانت **الوئام والوفاق المتبادل** بين أفراد المجتمع الإسلامي؛ هذا الجانب يصف "الوئام المتبادل" بين المسلمين، والحقيقة أنه من خلال الروايات والملاحظات الشخصية التي تم الاستشهاد بها في حديث ريقولودو، قد تبدو لجمهوره الغرابة والدهشة مما قاله، وذلك أن المسلمين والذي يفترض أنهم بالنسبة للمسيحيين أكثر عنفاً وضراوة، في الواقع، طبقاً لريقولودو، "هم أكثر تراحمًا فيما بينهم؛ فهم يحيون بين أنفسهم في وفاق وحب متبادل يشبه الوفاق بين الإخوة" ولتفسير ما يعنيه ريقولودو من ذلك الحب الأخوي، فهو يبدأ بعرض وتقديم أول الأمثلة التي مر بها شخصياً من خلال تجاربه فيقول: "عندما يتحدث بعضهم إلى البعض، خاصة عندما يكون الحديث

⁶⁴- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 164; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 57.

⁶⁵- Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim in Medieval Iraq*, 58.

هناك العديد من الآيات في القرآن الكريم تحت على التضرع والدعاء إلى الله بواسطة التعددية في أسماء الله الكريمة، ومن أمثلة هذه الآيات: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وأيضاً: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ راجع: القرآن الكريم، سور الأعراف، 180؛ الإسراء، 110.

موجة إلى الأجنب، فأحدهم يقول للآخر يا ابن أمي **o fili matris mee** من الواضح أن تلك العادة الودية جعلت ريقولدو يتأكد من المودة السائدة بين المسلمين⁽⁶⁶⁾.

عرض ريقولدو لقضية القتل وطلب الدية، ومدى التسامح بين الطرفين المتخاصمين؛ فصرح بأنه إذا قتل مسلم شخصاً آخر، سواء عن طريق الخطأ أو بتعمد؛ فإن عائلة القتيل نادراً ما تطالب بالتأثر، ولكن بدلاً من ذلك فإن الأخ أو ابن القتيل يخبر القاتل: "إذا أنا قتلتك، فلن استرجع أخي أو ابني المقتول للحياة مرة أخرى، ويضيف، وإذا كان من السوء لمسلم أن يكون مقتولاً، فسيكون من الأسوأ أن يكون هناك قتلين اثنين". بهذا المثال، يريد ريقولدو أن يسلط الضوء على أن ظاهرة التأثر بين المسلمين تكاد تكون منعدمة أو قليلة، ربما كان هذا مفاجئاً عندما قارن ريقولدو هذا بالسلوك المسيحي، لأنه ينهي هذا الجانب بأكمله باستنتاج صادم ومروع للمسيحيين، ويضعهم في موضع الخجل، فيقول: "بينما المسيحيون هم الذين يسألون الرب يومياً أن يغفر لنا ذنوبنا كما نغفر ونسامح الآخرين، بل في الواقع إن المسلمين يتجاوزوا المسيحيين في مغفرة الجرائم والخطايا". هذا البيان جدير بالملاحظة بشكل خاص، لأن ريقولدو ليس فقط يوازن ويقارن بين التطبيق العملي الإسلامي المسيحي، بل هو في الواقع يؤكد أن المسلمين يفوقون المسيحيين⁽⁶⁷⁾.

وتقديم ريقولدو لقضية الوثام والوفاق الإسلامي المتبادل يُعد متعاطفاً ويشمل العديد من الملاحظات الشخصية، ولكن أيضاً من الملفت للنظر أنه مزيج متنافر من الآراء المتناقضة، لأنه في هذا القسم الخاص يتأرجح كثيراً بين مدح المسلمين كمتحابين ومتسامحين، ثم بعد ذلك ينتقدهم كقساة وعدوانيين، هذا التنافر يمكن ملاحظته في العديد من العبارات، مثل "مثل هذا القدر من الوفاق الذي يسود بين هؤلاء أبناء الإثم والظلم"، مثال آخر على التنافر في حديثه عن الوفاق الذي رآه بين المسلمين، الذين، كما صرح، "أن لديهم شريعة الموت (القرآن)" مع قلة أو نقص التوافق والوثام الذي لاحظته بين المسيحيين الذين "لديهم شريعة الحياة (الأناجيل)"، يشمل أيضاً على العديد من الأمور الجانبية: "انظر كيف أن الذين لديهم شريعة القتل والموت لا يرغبون في قتل بعضهم

⁶⁶- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 166; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 63; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 183.

⁶⁷- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 168; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 64; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 185-186.

البعض، وأن المسيحيين البائسين، الذين لديهم شريعة الحياة ووصايا السلام والحب يقتلون بعضهم البعض بدون رحمة". وتجنباً لافتتان قرائه المسيحيين من تلك الفضائل الإسلامية، فإن ريقولدو ينهي هذا الجزء بالعديد من رسائل التذكير، فيذكر أنه "على الرغم من ذلك لديهم شريعة القتل"⁽⁶⁸⁾.

تتساءل الباحثة ريتا تفرتكوفتش عن نظرية ريقولدو المتناقضة، فبدلاً من ذم وقدح الأعمال الإسلامية خاصةً، والإسلام كعقيدة عامة؛ فقد أُعجب بشدة من هذه المناسك لدرجة أنه في معرض حديثه قد تملكه الخوف من افتتان قرائه المسيحيين بالسلوكيات الإسلامية الحميدة.

نخلص مما تقدم أن ريقولدو جاء مبعوثاً من قبل البابا نيقولا الرابع إلى منطقة المشرق الإسلامي من أجل دراسة العقيدة والفكر الإسلامي ودراسة أحوال وأمور المسلمين، حتى يتسنى له مجادلة الدين المسلمين بإيجاد الحجّة الدامغة على أن الإسلام ما هو إلا بدعة وهرطقة خارجة عن صلب العقيدة المسيحية، مثله مثل بقية من سبقوه من رجال الدين والمفكرين المسيحيين في العصور الوسطى، وعلى الرغم من تقديم ريقولدو لأعمال تفند وتتهكم على الإسلام من خلال عمله المُسمى "تفنيد القرآن"، إلا أن عمله "كتاب الحج"، والذي أكد فيه على القيم والمثل العليا المتمثلة في الأعمال الجليلة والعظيمة للإسلام والمسلمين، يمثل تضارباً كبيراً لآرائه. ويبدو أنه أراد من خلال "كتاب الحج" أن يظهر مساوئ أو نقصان المناسك الإسلامية بالمقارنة والمقاربة بينها ومثيلتها في المسيحية لدرجة أنه في بعض الأحيان لاحظ تفوقاً للممارسات الإسلامية على المسيحية. ولهذا يتضح للباحث أن ريقولدو لم يوفق في عمله لتشويه العقيدة الإسلامية لعدة أسباب، أولاً: وصفه لتلك المناسك الإسلامية لم يكن وصفاً دقيقاً وقد تبين ذلك في حديثه عن الصلاة واختلاط الأمر عليه بتضمين عملية مجالس الذكر لدى الصوفية على أنها من الصلاة، وأيضاً مغالاته في الحديث عن الوضوء لدى الحنفية، ثانياً: بدلاً من إظهار الإسلام على أنه عقيدة خاطئة لدى المسيحيين، فإنه كشف لجمهوره المسيحي مدى الإخلاص والتفاني والرقى والتحضر في ممارسة المسلمين لشعائهم الدينية، ثالثاً: من المؤكد أن تقديم ريقولدو

⁶⁸- Riccoldo, *Peregrination en Terre Sainte*, 168-172; Tvrtkovic, *A Christian Pilgrim*, 64-65; Tvrtkovic, *The Ambivalence of Interreligious Experience*, 185-186.

للممارسات الإسلامية قد عمل على إيجاد نوع من التخييط والتشتيت الفكري لدى قرائه من المسيحيين، فتارة يعرض لهم عملاً مليئاً، حسب وجهة نظره، بالمغالطات والتشويه للقرآن الكريم من خلال كتابه "تفنيد القرآن"، ثم بعد ذلك يقدم عمله، "كتاب الحج"، يمتدح فيه الإسلام والمسلمين.